الفصل التاسع عشر

الثبـــات

إن الحـق واضـح لا يخفى، باقٍ لا يزول ولا يُمحى، ظاهر منتصر لا يُخذل، ويكفي صاحـب الحـق ثباتًا أن الله معه، وأنه لا يقع أمر في هذا الكون إلا بإذن الله وتقديره، فمن اسـتقرت حقيقة الحق في قلبه استمسـك به بكل طاقته وآثره على كل ما سـواه ثقة بوعد الله ويقينًـا بنصره وحفظه لمن تولاه، وثبات القلب على الدين دليل إيمانه وبرهان صدقه، وشـهادة ببصيرتـه وفهمـه، وعلامة على تعظيمه لأمـر ربه وتقـواه لله جَلَّجَلَالُهُ، فتعالوا بنا أحبتـي الكـرام في هذه الصفحات نعيش مع معاني الثبات لعل القلوب تزداد ثباتًا وإيمانًا والموفق من وفقه الله.

معنى الثبات

الثبـات لغـة: مأخوذ من مـادة ثبت التي تدل على الدوام والاسـتقرار، يقال: ثبت ثباتًا وثبوتًا أي: دام واستقر فهو ثابت[(١)].

وأمـا معنى الثبات اصطلاحًـا فهو البقاء على الحق، والاسـتقامة عليه عند ورود الفتن والصمود عند البلاء.

وذلك يعني الاسـتقرار والدوام على الإيمان وعدم الانتكاس والنكوص عن شيء مـن الدين، وعـدم التفريـط في مَعْلِم من معالم الإيـمان؛ لأن المرء في هـذه الحياة يتعرض لضغوط شـديدة لكي يتراجع عن إيمانه ودينه وأخلاقـه وكذلك يتعرض لمغريات كثيرة تـكاد تزلزل الإيـمان في قلبه، ولكنه يبقى ثابتًا على مبادئ دينـه، صابرًا على إقامة الحق في حياتـه، لا يتأثـر قـط بكثرة الفتـن والمحن؛ لأنه ذو بصـيرة وفهم؛ ولعلمه بـأن ذلك من

(١) «لسان العرب» (٢/ ١٩)، «المعجم الوسيط» (١/ ٩٣).

طبيعة هذا الطريق، قيل لبعض السلف: هل صدتك المحن عن الطريق فقال: لولا المحن لشككت في الطريق.

والحديث عن الثبات أمرٌ في غاية الأهمية في هذه الأيام وذلك لشدة الفتن وكثرتها وتنوعها، فهي تحيط بنا في كل موطن ومكان، وترد علينا بأشكال متعددة مختلفة، وصارت كقطع الليل المظلم كالحة عاصفة، مؤلمة مزلزلة، خادعة ماكرة، مُقنَّة مزيَّنة، والمعصوم منها من عَصَمَهُ الله، وهذا العصر أشبه ما يكون بما ذكره رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث، فقال: «**بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم؛ يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، ويمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض من الدنيا**»[(١)]، كثير من المفتونين المفرطين الآن يبيعون دينهم وإيمانهم من أجل شهوة رخيصة أو مال، أو عِرْضٍ حقير أو غَرَضٍ خسيس خبيث، وأيضًا فإن من خطورة الفتن أنها ترِد على القلوب وتُعْرَضُ عليها فإذا أُشربتها وتأثرت بها اسودت القلوب وانتكست وعميت وزلّت وضلّت، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تُعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عُودًا عُودًا؛ فأيُّ قلب أُشرِبها نُكتت فيه نُكتةٌ سوداء، وأيما قلب أنكرها نُكِتَ فيه نُكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مربادًا كالكوز مجخيًا، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما أشرب من هواه**»[(٢)]، فالثبات محله القلب وكذلك الفتنة محلها القلب نعوذ بالله من الفتن.

حتمية البلاء

قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان: ٢]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، كل الناس في بلاء واختبار، ولكن كثيرًا منهم لا يشعرون، والمرء في هذه الحياة لا يخلو من البلاء إما أن يكون في نعمة، وهذا بلاء بالنعم، والواجب عند ذلك الشُّكر، وإما أن يكون في محنة والواجب عندئذ الصبر،

---

(١) رواه مسلم برقم [١١٨].

(٢) رواه مسلم برقم [١٤٤].

ولذلك قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عجبًا لأمر المؤمن؛ إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له»(١).

وليعلم أهل الإيمان أنه لابد من البلاء من أجل التمحيص والتمييز بين الطيب والخبيث، وليعلم الصادق من الكاذب، والتقيُّ من الشقيِّ، والمؤمنُ من المنافقِ، إياك أن تظن أن تعيش على الإيمان بغير بلاء هذا أبدًا لا يكون، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وعند البلاء تظهر السرائر الكامنة، ويظهر المرء على حقيقته، فكم من دَعِيٍّ يتشدق بكلام يرائي به الناس ويخادع به البشر حتى يظنوا أنه على شيء فإذا ورد عليه البلاء باع دينه وخسر كل شيء، وذلك لأن الإيمان لم يرسخ في قلبه ولم يتمكن من فؤاده، ولم يذق حلاوته وبشاشته؛ لذلك ينحرف ويسقط في أول الطريق، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ۝١١ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ [الحج: ١١-١٢]،

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠]، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: يقول تعالى عن صفات قوم من المكذبين الذين يَدّعون الإيمان بألسنتهم ولم يَثْبُتْ الإيمان في قلوبهم بأنهم إذا جاءتهم محنة وفتنة في

(١) رواه مسلم برقم [٢٩٩٩].

الدنيا اعتقدوا أن هذا من نقمة الله تعالى بهم فارتدوا عن الإسلام، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾[العنكبوت: ١٠]، قال ابن عباس: يعني فتنته أن يرتد عن دينه إذا أوذي في الله وكذا قال غيره من علماء السلف(١)، وقيل للشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أيُمَكَّن الرجل أم يُبْتَلَى؟ فقال: لا يُمَكَّنَ الرجل حتى يُبْتَلَى.

الحكمة من البلاء

لقد جعل الحكيم العليم جَلَّ جَلَالُهُ للبلاء حكمًا عظيمة كريمة منها: أنه طريق التمحيص، وتمييز الصالح من الطالح، والطيب من الخبيث، قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾[محمد: ٣١]، ومن ذلك أن البلاء كسر للنفس وردها إلى حقيقة العبودية وتنقيتها من الكِبْرِ والعُجْبِ، ولو عشنا من غير بلاء لماتت القلوب بالغرور والغفلة، وفي البلاء إيقاظ للقلب، وتنبيه للروح بأنه لا بد من الذُّل لله، والتضرع بين يديه والتبرؤ من حول النفس وقوتها إلى حول الله وقوته، الله يبتليك ليرى ذُلَّك وتضرعك وبكاءك، لكي يكرمك بعد ذلك بدرجات لا تنالها إلا بالصبر والثبات قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[الأنعام: ٤٣]، قسوة القلب تصرف العبد عن التضرع، وتزيين الشيطان يشغله عن الذُّل لله والدعاء، إنك تدخل على مريض أو مدين أو أي مبتلى فلا ترى انكسار النفس لله والتضرع والدعاء واللَّهَج باسم الله، بل تراه يشكو لهذا وذاك وينسى أن يقول: يا الله، وهذا من الخُذْلَانِ، ومن قسوة القلب عياذًا بالله.

ومن حِكم البلاء أنه كفارة للذنوب، ورفعةٌ للدرجات، وتأهيل للعبد بأن يكون من الأئمة المصلحين إذا انضاف إلى الثبات والصبرِ اليقينُ، كما قال أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين في كتابه المبين: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[السجدة: ٢٤].

---

(١) رواه البخاري برقم [٥٦٤٥].

وقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «من يرد الله به خيرًا يُصِب منه»[(١)]، وقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «إن عِظَم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحب قومًا ابتلاهم؛ فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السُّخْط»[(٢)]، فالله لا يبتلي المؤمن ليعذبه بل ليُنَقِّيَهُ ويُهَذِّبَهُ، ففي البلاء كفارة لخطيئتك، ومحقٌ لذنوبك، ورفعة لدرجتك، ورحمة من الله بك.

يقول ابن القيم عليه رحمة الله: إذا ابتلى الله عبده بشيءٍ من أنواع البلايا والمحن فإن رَدَّهُ ذلك الابتلاءُ والمحنُ إلى ربه وجمعه عليه وطرحه ببابه فهو علامة سعادته وإرادة الخير به، والشدة بتراء لا دوام لها وإن طالت، فتقلع عنه حين تقلع وقد عُوِّضَ منها أجلَّ عوض وأفضله، وهو رجوعه إلى الله بعد أن كان شاردًا عنه، وإقباله عليه بعد أن كان نائيًا عنه، وانطراحه على بابه بعد أن كان مُعْرِضًا وللوقوف على أبواب غيره متعرضًا، وكانت البليَّة في حق هذا عين النعمة وإن ساءته وكرهها طبعه ونفرت منها نفسه، فربما كان مكروه النفوس إلى محبوبها سببًا ما مثله سبب، وقوله تعالى في ذلك هو الشفاء والعصمة، قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦][(٣)].

الثبات واجب

إذا ادْلَهَمَّتْ الخطوب وحلّت الفتنُ فإنه يجب على كل من آمن بالله أن يصبر ويثبت، وأن يعتصم بالله جَلَّجَلَالُهُ، ومن ثبت مستعينًا بالله ثَبَّتَهُ الله وأعانه وسَدَّده، ومن خُذِل وانتكس فقد تَعَرَّض لغضب الله وعذابه، وقد أوجب الله الثبات على عباده المؤمنين فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]، وأعداء الإسلام يُغيرون علينا الآن بأسلحة الشهوات والشبهات والإغراءات

(١) رواه البخاري برقم [٥٦٤٥].

(٢) رواه الترمذي [٢٣٩٦]، وابن ماجه [١٠٣١]، وحسنه الألباني في «الصحيحة» برقم [١٢٢٠].

(٣) «طريق الهجرتين» (١/ ٢٥٩) ط، دار ابن القيم بالدمام.

لكي يفتنونا عن ديننا ويصرفوا شباب الأمة ورجالها عن التمسك بدينهم والدعوة إليه ونصرته، ويريدون للأمة أن تخذل عن دينها، ولا تَقِلُّ هذه الحرب شراسة عن المعركة الحربية، فالواجب علينا الثبات، والواجب علينا من قبل ذلك ألا نعرض قلوبنا لمثل هذه الشبهات والشهوات التي توجه لبلاد المسلمين في كل دقيقة وثانية ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وكم من أناس ضلوا وزلُّوا وزهدوا في حق كانوا عليه وتهاونوا في كثير من معالم هذا الحق، لماذا غُيِّرْتُم؟! لماذا بُدِّلْتُم؟! لماذا عن التزامكم بدينكم تراجعتم؟! يامن خذلت عن الصلاة في جماعة، ويامن خذلت عن أخلاقك وسلوكياتك الإيمانية الكريمة، لماذا تراجعت ولماذا صار الحرام عندك حلالًا؟! لماذا غرقت في الدنيا وصارت هي كل شيءٍ في حياتك؟! إن ذلك هو الانتكاس والخذلان وعلامة هَوَان العبد على الله، إذ لو كان له عند الله قدر لعصمه وحفظه وثبَّتَهُ وأيَّدهُ، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾[آل عمران: ٨]، ومما يَدُلُّك على وجوب الثبات كذلك قول رسول الله ﷺ: «**يا أيها الناس لا تتمنَّوا لقاء العَدُوِّ، واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا**»[(١)]، وفي لفظ عند الدارمي: «**إذا لقيتموهم فاثبتوا**»[(٢)]، ومما يدلك كذلك على وجوب الصبر في الفتن والثبات على الإيمان فيها قول رسول الله ﷺ عن المسيح الدجال: «**إنه خارج خلة بين الشام والعراق فعاث يمينًا وعاث شمالًا يا عباد الله فاثبتوا**»[(٣)]، وكل الآيات والأحاديث الوارده في وجوب الصبر تشمل في معناها وجوب الثبات، فاثبت ثبتك الله، واثبت يكن الله معك، اثبت يحبك الله جَلَّجَلَالُهُ.

صفحات من الثبات

إن من أهم الأمور التي تحث النفس على الثبات وتدفعها إليه مدارسة أحوال الثابتين، والنظر في سيرة الأئمة الموقنين، والاعتبار بحالهم وما كانوا عليه من رسوخ اليقين، أولئك

---

(١) رواه البخاري برقم [٢٨١٨]، ومسلم برقم [١٧٤٢].

(٢) رواه الدارمي (٢/ ٢٨٥)، وضعف هذه اللفظة حسين سليم أسد.

(٣) رواه مسلم برقم [٢٩٣٧].

الذين صبروا وثبتوا حتى أعز الله بهم دينه، وأعلى بهم كلمته، وكانوا قدوة صالحة صادقة لمن بعدهم، وحجة قائمة على كل مبتلى، والذي نريد بيانه من خلال سرد مواقفهم النبيلة أن نقول: اصبر كما صبروا، واثبت كما ثبتوا، فإن بلاءك مهما عَظُم واشتد فإنه قليل صغير إلى جانب بلاء أولئك الصادقين الذين عاشوا الإيمان حقيقة وحالًا، وقاموا بالعبودية لله في السراء والضراء، والشدة والرخاء، وأول من نبدأ ونتشرف بالحديث عنه هو سيد الأنبياء وإمام الثابتين وقدوة العالمين في كل وصف كريم صلوات الله وسلامة عليه.

أثبت الخليقة قلبًا

إنه قدوتنا وأسوتنا ونبينا ورسولنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي كان في جانب والبشرية كلها في جانب آخر، ولم يكن على وجه الأرض من يوحِّد الله في هذا الوقت إلا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فثبت أمام العالم كله ونشر النور في أرجائه ودعا إلى الله عَزَّوَجَلَّ بأبلغ وأعظم وأكمل الوسائل في الدعوة والبيان، حتى دخل الناس في دين الله أفواجًا، وانقادت القلوب وأذعنت بالعبودية الصادقة لله جَلَّجَلَالُهُ، وفي خلال هذه الرحلة الدعوية العظيمة لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تعرض لابتلاءات مزلزلة تنوء الجبال بحملها، ولكنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان ثابتًا صامدًا، كان صلبًا في الحق ما غيَّر ومابدَّل، وما تنازل عن شيءٍ من مبادئ دعوته وما ترك شيئًا قط من معالم رسالته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إرضاء لمخلوق، وطلبًا لوُدِّ بشر، قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩]، لقد كان أصحابه يتخطفون من حوله، ويُعَذَّبُون، ويُقْتَلُونَ، وتُصَادَرُ أَمْوالهم، وَيُؤْذَى هو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في نفسه إيذاء متكررًا شديدًا ومع كل ذلك ما غيَّر ومابدَّل، ومن مشاهد ثباته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يلي:

عن عقيل بن أبي طالب قال: جاء أهل مكة إلى أبي طالب فقالوا: إن ابن أخيك يؤذينا في نادينا وفي مسجدنا فانهه عن أذانا فقال: يا عقيل، ائتني بمحمد فذهبْت فأتيته به فقال: يا ابن أخي، إن بني عمك يزعمون أنك تؤذيهم في ناديهم وفي مسجدهم فانته عن ذلك قال: فحلق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بصره إلى السماء، فقال: «**ترون هذه الشمس؟**»

قالـوا: نعـم قـال: «**ما أنا بأقـدر أن أدع لكم ذلك على أن تستشـعلوا لي منها شـعلة**»، فقال أبو طالب: ما كَذَبَنَا ابنُ أخي فارجعوا(١).

وأرسـلت قريش إلى رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عتبة بن ربيعة فأتاه فقال: يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من السِّطة في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسـفهت به أحلامهـم، وعبت به آلهتهم ودينهم وكفَّرت به من مضى من آبائهم فاسمع مني أَعْرِضْ عليك أمورًا تنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها فقال رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قل يا أبا الوليد أسـمع، قال: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بـما جئـت به من هذا الأمر مالًا جمعنـا لك من أموالنا حتى تكـون أكثرنا مالًا، وإن كنت تريـد بـه شرفًا سَـوَّدْنَاكَ علينا حتى لا نقطـع أمرًا دونـك، وإن كنت تريد ملـكًا مَلَّكْنَاكَ علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا تراه(٢) لا تستطيع رَدَّه عن نفسك طلبنا لك الطِّبَ، وبذلنـا مـن أموالنا حتى نُبْرِئَـكَ منه فإنه ربما غلـب التَّابعُ على الرجل حتـى يداوى منه، حتـى إذا فرغ ورسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسـتمع منه قـال: أقد فرغت يا أبـا الوليد؟ قال: نعم، قال: فاسـمع مني، قال: أفعـل، قال: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ [فصلت: ٣-٤]، ثـم مضى رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها يقرؤها عليه، فلما سـمعها عتبة منه أَنْصَتَ لها وألقى يديه خلف ظهره معتمدًا عليهما يسـتمع منه فلما انتهى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى السجدة منها فسجد ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك(٣).

---

(١) رواه أبو يعلى [٦٨٠٤]، والبزاز [٢١٧٠] وحسنه الألباني في الصحيحة رقم [٩٢]، وأشار بعده إلى ضعف حديث «ياعم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري.....» قال: ولذلك أوردته في الضعيفة [٩١٣].

(٢) **رئيًا تراه:** أي جنًا يأتيك.

(٣) «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ١٣١)ط دار الجيل، وضعفه أخونا العلاوي في تحقيق الشفا ولكن حسن الحديث الشيخ الألباني في تحقيق «فقه السيرة» [١١٥-١١٦]ط الريان.

ومن مشاهد الثبات في حياة المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما رواه البخاري ومسلم عن أبي إسحاق أنه قال: قال رجلٌ للبراء: يا أبا عمارة أفررتم يوم حنين؟ قال: لا والله ما ولّى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكنه خرج شبان أصحابه وأَخِفَّاؤُهم حُسَّرًا ليس عليهم سلاح أو كبير سلاح، فلقوا قومًا رماة لا يكاد يسقط لهم سهم، جمع هوازن وبني نصر، فرشقوهم رشقًا ما يكادون يخطئون فأقبلوا هناك إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على بغلته البيضاء وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يقود به فنزل فاستنصر وقال: «**أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب**»، ثم صفهم[(١)].

لقد مارس المشركون مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كل ألوان الأذى وأجلبوا عليه وعلى أصحابه بخيلهم ورَجِلِهم، وساموهم كل ما يقدرون عليه من تعذيب لكي يصرفوا رسول الله ويثنوه عن دعوته، فما وجدوا إلى ذلك سبيلًا قَطُّ، وخارت قواهم وانكسر طغيانهم أمام ثبات المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعجزوا تمام العجز عن صَدِّه وصَدِّ أصحابه عن شيء من معالم الدعوة والدين، وإنما استمد الصحابة ثباتهم من ثبات رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويقينه بالله، فصلى الله وسلم على من عَلَّمَ الدنيا معنى الثبات.

ثبات الصحابة

هذا الجيل العظيم النبيل الذي شهد الوحي والتنزيل، وعطر الدنيا بنور الوحي والترتيل، وفتحوا البلاد وقلوب العباد في وقت قليل، كان من أهم ما أعانهم على ذلك ثباتهم ويقينهم وثقتهم، وما عرفت الدنيا جيلًا ثبت كما ثبتوا، وبذل كما بذلوا، وجاهد كما جاهدوا، وعبد الله كما عبدوا؛ لأنهم تَرَبَّوا على يَدِ سَيِّد الخلق وإمام الهدى محمد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أُخرجوا من ديارهم وأموالهم، وابتُلُوا في أجسادهم وأعراضهم وأرزاقهم، وعاداهم العالم كله، ودخلوا في حروب متطاولة، وسفكت منهم الدماء ومُزِّقَتْ منهم الأشلاء، ولكنهم ثبتوا وصمدوا حتى مكَّن الله بهم لدينه وأعلى بهم كلمته، ورفرفت

(١) رواه البخاري برقم [٤٣١٥]، ومسلم برقم [١٧٧٦].

رايات الإسلام على ربوع الدنيا وأذعنت أكثر البلاد لحكم الله ورسوله وكل ذلك كان ثمرة لبذلهم وثباتهم، فرضي الله عنهم وأرضاهم.

هذا أنس بن النضر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقبل في غزوة أحدٍ ثابتًا صامدًا والسيوف تمزق جسده والرماح تقطع بدنه حتى يسقط على الأرض قتيلًا وقد شهدت جراحه بصدقه وثباته، حتى يقول أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فوجد في جسده بضع وثمانون من بين ضربة وطعنة ورمية، فقالت أخته عمتي الرُّبيِّع بنت النضَّر: فما عرفت أخي إلا ببنانه، ونزلت هذه الآية: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]، قال: فكانوا يَرَوْنَ أنها نزلت فيه وفي أصحابه(١).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما طُعِن حرام بن ملحان -وكان خاله- يوم بئر معونة قال بالدم هكذا فنضحه على وجهه ورأسه ثم قال: فزتُ ورب الكعبة(٢).

وهذا المشهد العجيب جعل قاتله يُسْلِم وذلك لما رأى من هذا الثبات الذي لا يكاد يوجد في دنيا البشر يقول جبار بن سلمى: إن مما دعاني إلى الإسلام أني طَعَنْتُ رجلًا منهم يومئذٍ برمح بين كتفيه، فنظرت إلى سنان الرمح حين خرج من صدره فسمعته يقول: فزتُ ورب الكعبة فقلت في نفسي: ما فاز ألست قد قتلت الرجل؟ حتى سألت بعد ذلك عن قوله فقالوا للشهادة، فقلت: فاز لَعَمْرُ الله، فكان سبب إسلامه(٣).

وهذا خُبيب بن عدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وثباته العجيب والحديث في ذلك رواه البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفيه: فلما خرجوا من الحرم ليقتلوه في الحل قال لهم خبيب: ذروني أركع ركعتين فتركوه فركع ركعتين، ثم قال: لولا أن تظنوا أن ما بي جزعٌ لطولتهما، اللهم أحصهم عددًا:

---

(١) رواه البخاري برقم [٢٨٠٥]، ومسلم برقم [١٩٠٣].

(٢) رواه البخاري برقم [٤٠٩٢].

كان خاله: أي خال أنس بن مالك لأنه أخو أم سليم الرميصاء بنت طلحان رضي الله عنه.

(٣) «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ٢٠٧)، «السيرة النبوية» للصلابي (٢/ ٢٣٤).

ولست أبالي حين أقتل مسلمًا ... على أيِّ شق كان لله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع

فقتله ابن الحارث، فكان خبيب هو سن الركعتين لكل امرئ مسلم قتل صبرًا[1]، إن الحديث عن ثبات الصحابة يطول ويحلو وتأمل إذا شئت في سيرة بلال وصهيب وعمار وسلمان وغيرهم من الصادقين من الصحابة الكرام -وكل الصحابة صادقون ثابتون رضي الله عنهم أجمعين- ولولا خشية الإطالة لسردت الأحداث الكثيرة والكبيرة في ثبات الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ولعل في هذه الإشارة تنويه وتنبيه لمواقفهم الأخرى رضوان الله عليهم أجمعين.

لمحة من ثبات السابقين

إن طريق الحق مليء بالعقبات والمحن، ولكن عاقبته الجنة ورضوان الله سبحانه، ومن تلمح ببصيرته حلاوة العاقبة هانت عليه مرارة التضحية، ومن استيقن بوعد الله عظم ثباته وصموده، ومنذ أن خلق الله الخليقة لازال الصراع قائمًا باقيًا بين الحق والباطل، والخير والشر، والهدى والضلال وسوف يظل هذا الصراع دائمًا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، تلك سُنَّة كونية ثابتة لا تتغير ولا تتبدل، وحين ننظر في حياة الصالحين في الأمم السابقة نرى روعة الثبات وعظمة الاستمساك بالدين، ومن هذه المشاهد مايلي:

سحرة فرعون:

إنهم قوم ممن مهروا في السحر وتعلموه وكانت قضيتهم كل قضيتهم المال والدنيا وقد جاء بهم فرعون ليناظروا موسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويثبتوا للناس بأنه ساحر، وجاء السحرة بهم خسيسة لا يحركهم ولايدفعهم إلا المال وبمجرد أن دخلوا على فرعون قالوا: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١-٤٢]، إنهم لا يريدون سوى الدنيا ومتاعها فيجيبهم فرعون إلى ما أرادوا بل يقول: سأجعل منكم

(١) رواه البخاري برقم [٣٠٤٥].

وزراء ومقربين لدي بمنحكم المناصب العالية يقول الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وذلك أن القبط أرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم فأبى الله إلا أن يتم نوره ولوكره الكافرون، وهذا شأن الكفر والإيمان ما تواجها وتقابلا إلا غلبه الإيمان، ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء:١٨]، ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ [الإسراء:٨١]، ولهذا لما جاء السحرة وقد جمعوهم من اقاليم بلاد مصر، وكانوا إذ ذاك أسحر الناس وأصنعهم وأشدهم تخييلًا في ذلك، وكان السحرة جمعًا كثيرًا وجمًا غفيرًا والله أعلم بعدتهم، واجتهد الناس في الاجتماع ذلك اليوم وقال قائلهم: ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ [الشعراء:٤٠]، ولم يقولوا نتبع الحق سواء كان من السحرة أم من موسى، بل الرعية على دين ملكهم ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ ﴾ أي إلى مجلس فرعون وقد ضربوا له وطاقًا وجمع خدمه وحشمه وأمراءه ووزراءه ورؤساء دولته وجنود مملكته، فقام السحرة بين يدي فرعون يطلبون منه الإحسان إليهم والتقرب إليه إن غلبوا فقالوا: ﴿ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ [الشعراء:٤١-٤٢]، أي وأخص مما تطلبون أجعلكم من المقربين عندي وجلسائي[1]، ثم وقعت المناظرة بعد أن جُمِعَ الناس في يوم الزينة وبعد أن ألقى السحرة حبالهم وعصيهم وصار يخيَّل للناس أنها ثعابين تتحرك وتسعى، ألقى موسى عصاه فالتهمت كل ماصنعوا كما قال تعالى: ﴿ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾ [الشعراء:٤٤-٤٦]، وهنا علموا أن ما جاء به موسى ليس سحرًا وليس تخييلًا، بل هو أمر خارج عن قدرة البشر وأن هذا إنما هو تأييد من الله لنبيه موسى فلم يتمالكوا أنفسهم بعد أن عرفوا عن علم وعن خبرة صدق موسى؛ فخروا ساجدين لرب العالمين وآمنوا بالله.

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» باختصار (٦/ ٤١) ط. التوفيقية.

وحينئذ هددهم فرعون أشد التهديد وأظهر لهم شدة غضبه عليهم وكيف سيعذبهم وينتقم منهم، لكنهم لم يبالوا ولم يهتموا لأنهم علموا أن هذا الفرعون مخلوق ضعيف لا يملك من الأمر شيئًا، ولذلك ثبتوا وصمدوا ورفضوا الرجوع عن دينهم مهما كانت العقوبات والتهديدات، قال تعالى: ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٤٦-٥١]، إن هذا الموقف لا يصطنعه إلا الإيمان الراسخ واليقين القوي، ووالله إن المرء ليعجب من هؤلاء الذين ثبتوا هذا الثبات بعد أن كان قصدهم متاع الحياة الدنيا وزينتها وكم عمرهم في الإسلام إنها لحظات ثم يصبرون ويثبتون أمام هذه التهديدات الفرعونية المزلزلة ثم كم عمرنا نحن في الدعوة والالتزام ترى ما قدر ثباتنا؟ هل عندنا من الثبات ما عند هؤلاء الذين ماعرفوا الحق إلا من ساعات معدودات ويقولون لفرعون: اصنع ما بدا لك فإننا لا نخافك لأنك إذا عذبتنا فليس لك سلطان إلا على هذه الأجساد، أما القلوب فهي بيد الله وثواب الله لنا خير وأبقى وأبرُّ وأوفى، قال تعالى: ﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [طه: ٧٢-٧٣]، والله إن المرء لا ينقضي عجبه أمام هذا الثبات لاسيما إذا نظرت إلى أصحاب الالتزام الأجوف الذين يزلزلهم أقل تهديد ويصدهم عن سبيل الله أقل وعيد، ألا فليكن لنا في أولئك الصامدين الثابتين أسوة وعبرة وقدوة صالحة.

تالله ما الدعوات تهزم بالأذى ... أبدًا وفي التاريخ برُّ يميني

ضع في يدي القيد ألهب أضلعي ... بالسوط ضع عنقي على السكين

لا لن تستطيع حصار فكري ساعة ... أو كبح إيماني ورد يقيني

فالنور في قلبي وقلبي في يدي ربي ... وربي حافظي وناصري ومعيني

ولله در القائل:

كل الذي أدريه أن تجرعي ... كأس المذلة ليس في إمكاني

أهوى الحياة كريمة لاقيد لا ... إذلال لا استخفاف بالإنسان

فإذا سقطت سقطت أحمل عزتي ... يجرى دم الأحرار في شرياني

ثبات يدهش العقل:

إن القلب ليرتجف هيبة وإجلالًا حينما يقف على هذا المعنى الرائع العالي من الثبات، وذلك حين يقدم البدن كله للنار ليبقى الإيمان ويبقى اليقين في أن الآخرة خير وأبقى، بماذا تفيد حياة طويلة من بعدها نار جهنم، إن البصير العاقل هو الذي يؤثر رضوان ربه وطاعة أمره سبحانه ولو كان فيها هلاك النفس وفناء البدن، وهل يعيش المؤمن إلا من أجل الوصول إلى النعيم المقيم في الآخرة؟! إن قصة أصحاب الأخدود مشهورة معلومة لكن أريد أن أشير فيها إلى ثبات الغلام ورضاه بأن تزهق روحه في سبيل أن يتحقق ما عاش من أجله وهو إيمان الناس، وقد آمنوا بعدما رأوا بأعينهم كيف عجز الملك عن قتله ثم أعجب عجبًا أشد من هؤلاء الناس الذين دخلوا في دين الله منذ لحظات يسمعون التهديد والوعيد والتخويف ويرون بأعينهم الأخاديد تشق في الأرض وتشعل فيها النار ويحرق فيها كل من لم يرجع عن دينه، وما رجع واحدٌ منهم قط، فياله من ثبات، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في آخر حديث أصحاب الأخدود: «**فقال للملك، إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، قال: ما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد وتصلبني على جذع، ثم خذ سهمًا من كنانتي ثم ضع السهم في كبد القوس ثم قل: بسم الله رب الغلام، ثم ارمني؛ فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني، فجمع الناس في صعيد واحد، وصلبه على جذع ثم أخذ سهمًا من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: بسم الله رب الغلام، ثم رماه فوقع السهم في صدغه فوضع يده في صدغه فمات، فقال الناس: آمنا برب الغلام، فأتى الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر، قد والله نزل بك حذرك، قد آمن الناس، فأمر بالأخدود بأفواه السكك فخُدَّت وأُضْرِمَ فيها**

النيران وقال: من لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها أو قيل له: اقتحم ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها فقال لها الغلام: يا أماه اصبري فإنك على الحق»[1].

لما ضحَّى الداعية بروحه وجسده في سبيل الله ضحَّى أتباعه بأرواحهم وأجسادهم وكان لهم في ذلك قدوة وأسوة كما كان لهم إلى الحق دليلًا وهاديًا.

أرأيت كيف ألقوا أنفسهم في نار الدنيا لينجيهم ربهم من نار الآخرة؟! أرأيت هذه الصورة العظيمة التي تبين روعة الثبات على الدين والثقة بوعد الله رب العالمين!! إن القلم يكاد يتعثر خجلًا من حالنا إذا قارناه بحالهم، من الناس اليوم من يفرط في دينه من أجل عرض زائل، صار إيمانه في قلبه رخيصًا والقيمة في هذا القلب إنما هي للدنيا وما فيها من رغبات عاجلة تنقطع بانقطاعها وتزول بزوالها فنعوذ بالله من عمى القلب ونعوذ بالله من همة خسيسة دنيئة.

وقريب من هذا المشهد في الثبات مشهد امرأة مؤمنة آثرت أن يحترق جسدها بنار الدنيا لتنجو من عذاب الآخرة وهي الماشطة التي كانت تمشط ابنة فرعون، وفيها دليل وبرهان على أن الحق والإيمان يرفع من خسيسة الإنسان ويرفعه مقامًا على ذي العز والسلطان، إنها مجرد خادمة وماشطة في قصر فرعون لكنها عرفت الحق وآثرته ونالت من كرامة الله عَزَّوَجَلَّ مالم يحصله أحد من هؤلاء المترفين والمتكبرين الغارقين في التيه والضلال في هذا القصر الفرعوني المظلم الخرب من معاني الإيمان.

والحديث رواه أحمد في المسند بسند حسن من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لما كانت الليلة التي أسري بي فيها أتت عليَّ رائحة طيبة فقلت: يا جبريل، ما هذه الرائحة الطيبة؟ فقال: هذه رائحة ماشطة ابنة فرعون وأولادها، قال: قلت: وما شأنها؟ قال: بينما هي تمشط ابنة فرعون ذات يوم إذ سقط المدريّ من يدها فقالت: بسم الله، فقالت لها ابنة فرعون: أبي؟ قالت: لا ولكن ربي ورب أبيك الله، قالت: أخبره بذلك؟ قالت: نعم،**

(١) رواه مسلم برقم [٣٠٠٥].

فأخبرته، فدعاها، فقال: يافلانة، وإن لك ربًا غيري؟ قالت: نعم، ربي وربك الله، فأمر ببقرة من نحاس فأحميت، ثم أمر بها أن تلقى هي وأولادها فيها، قالت له: إن لي إليك حاجة، قال: وما حاجتك؟ قالت: أحب أن تجمع عظامي وعظام ولدي في ثوب واحد وتدفننا، قال: ذلك لك علينا من الحق، قال: فأمر بأولادها فألقوا بين يديها واحدًا واحدًا إلى أن انتهى ذلك إلى صبيّ لها مرضع، وكأنها تقاعست من أجله قال: يا أمَّه اقتحمي فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة فاقتحمت»[(١)].

قلت: وبذلك قد انتصرت ونالت شرف الشهادة وضحت بنفسها وروحها من أجل دينها وإيمانها ثم تأمل كيف لأمٍّ أن تصبر على إلقاء أولادها أمام عينها في النار وتصبر على ذلك إنه الإيمان! إنه اليقين! إنه الثبات!!

من مواقف الثبات في تاريخ الأمة

هذا هو الصديق أبو بكر يثبت وتثبت الأمة بثباته وتثوب إلى الحق، وذلك في محنة وفاة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم ثبات آخر أمام فتنة المرتدين حتى ردهم إلى حوزة الدين.

الإمام أحمد:

وهذا إمام أهل السنة أحمد بن حنبل يثبت على الحق وتهون عليه نفسه في الله ويتجرع غصص العذاب الأليم ويبقى ثابتًا على الحق مستمسكًا به داعيًا إليه، وقد قيل: لولا سياط على ظهر ابن حنبل ماصار إمام أهل السنة، وكانت نفسه عليه أهون من ذباب، وإنما تهون عليهم أنفسهم لتلمحهم العواقب، فعيون البصائر ناظرة إلى المآل لا الحال، وشدة ابتلاء الإمام أحمد دليل على قوة دينه وصدق إيمانه ورسوخ يقينه، قال الإمام أحمد: لما دُعيت إلى المحنة رأيت في المنام علي بن عاصم فأوَّلتها علوًا وعصمة من الله عَزَّوَجَلَّ والحمد لله على ذلك[(٢)].

(١) رواه أحمد في المسند برقم [٢٨٢١] (٥/ ٣٠) ط الرسالة وحسنه محققوا المسند، وقد سمعت الشيخ العدوي حفظه الله يقول بأنه حديث مختلف فيه والصحيح فيه أنه حسن.

(٢) «طبقات الحنابلة» (٢/ ٦٦)، «الجوهر المحصل» ص [٦٦] ط هجر.

وكان من رحمة الله بالإمام أحمد وتثبيته له أن أيده بنصائح المخلصين الصادقين الذين حثوه على الثبات وأوصوه به، قال أحمد: ما سمعت كلمة كانت أقوى لقلبي من كلمة كلمني بها أعرابي في رحبة مالك بن طوق[١]، قال: يا أحمد، إن يقتلك الحق مت شهيدًا، وإن عشت عشت حميدًا.

قال البيهقي: زاد غيره -أي راوي هذا الخبر إبراهيم البصري- أنه قال: يا أبا عبد الله تحبُّ الله؟ قال: قلت: نعم، قال: فإنك إن أحببت الله أحببت لقاءه، ثم مضى فلم أزل أنظر إليه حتى غاب، قال ابن أبي حاتم: فكان كما قال الأعرابي، لقد رفع الله شأن الإمام أحمد بعد ما امتُحِن وعظم عند الناس وارتفع أمره جدًا.

وذكر أيضًا ابن الجوزي بسنده عن أبي جعفر الأنباري قال: لما حمل أحمد إلى المأمون أخبرتُ، فعبرتُ الفرات فإذا هو جالس فسلمت عليه فقال: يا أبا جعفر تعنيت، فقلت: ليس في هذا عناء وقلت له: أنت اليوم رأس والناس يقتدون بك، فوالله لئن أجبت إلى خلق القرآن ليجيبن بإجابتك خلق من خلق الله، وإن أنت لم تجب ليمتنعن خلق من الناس كثير، ومع هذا فإن الرجل [يعني المأمون] إن لم يقتلك تموت ولابد من الموت، فثق بالله ولا تجبهم إلى شيء، قال: فجعل أبو عبد الله يبكي ويقول: ما شاء الله، ما شاء الله[٢].

وقال عبد الله بن الإمام أحمد: كنت كثيرًا ما أسمع والدي يقول: رحم الله أبا الهيثم، غفر الله لأبي الهيثم، عفا الله عن أبي الهيثم، فقلت له: يا أبه، من أبو الهيثم؟ قال: ألا تعرفه؟ قلت: لا قال: لما أخرجت إلى السَّيَّاط وقُدِّمت للعقاب، إذ أنا بإنسان يجذب ثوبي من ورائي ويقول لي: تعرفني؟ قلت: لا قال: أنا أبو الهيثم العيَّار اللص الطَّرار، مكتوب في ديوان أمير المؤمنين أني ضربت ثمانية عشر ألف سوط، وإنما ضربت على طاعة الشيطان لأجل الدنيا، فاصبر أنت في طاعة الرحمن لأجل الدين.

---

(١) بلدة بناها مالك بن طوق في خلافة المأمون على الفرات.

(٢) «مناقب أحمد» لابن الجوزي ص [٣٩٠] ط هجر تحقيق الدكتور عبد الله التركي.

ودخل عليه رجل من الصالحين فقال: يا أبا عبد الله، إن الله قد رضيك له وافدًا فانظر أن لا يكون وفودك على المسلمين وفودًا مشؤومًا، واعلم أن الناس إنما ينتظرونك لأن تقول فيقولوا، فاعلم أنما هو الموت والجنة ثم مضى.

وبعدها طلب أحمد إلى المأمون فخرج على أحمد خادم وهو يمسح عن وجهه بكمه ويقول: عزَّ عليَّ يا أبا عبد الله، جرَّد أمير المؤمنين سيفًا لم يجرده قط وبسط نطعًا[١] لم يبسطه قط ثم قال: وقرابتي من رسول الله[٢] صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا رفعت عن أحمد وصاحبه[٣] حتى يقولا القرآن مخلوق، قال: فنظرت إلى أحمد وقد برك على ركبتيه ولحظ السماء بعينيه ثم قال: علا عن هذا الفاجر حكمك حتى يتجرَّأ على أوليائك بالضرب والقتل، اللهم فإن يكن القرآن كلامك غير مخلوق فاكفنا مؤنته.

قال: فوالله ما مضى الثلث الأول من الليل إلا ونحن بصيحة وضجَّة و إذا رجاء الحضارى قد أقبل علينا فقال: صدقت يا أبا عبد الله، القرآن كلام الله غير مخلوق، وقد مات والله أمير المؤمنين، قال الإمام أحمد: وقد كنت دعوت الله ألا يريني وجه المأمون، فلما مات المأمون وولي أخوه أبو إسحاق المعتصم رُدَّ بأبي عبد الله ومحمد بن نوح إلى بغداد فمات محمد بن نوح في الطريق، ووصل أبو عبد الله إلى بغداد مقيدًا، قال: فكان أبو عبد الله يقول: ما رأيت أحدًا على حداثة سنه أقوم بأمر الله من محمد بن نوح قال لي ذات يوم: يا أبا عبد الله إنك لست مثلي أنت رجلٌ يقتدى بك وقد مدَّ الخلق أعناقهم ليسمعوا مقالتك فاتق الله واثبت لأمر الله، قال: وكان أبو عبد الله يتعجَّب من تقويته له وموعظته.

---

(١) **النطع** فراش من جلد يوضع على الأرض تحت المقتول لئلا تتلوث الأرض بدمه.

(٢) هكذا حلف الخليفة المأمون ولا يجوز الحلف بغير الله.

(٣) هو محمد بن نوح، مات في طريق العودة وصلى عليه أحمد وأثنى عليه.

وكان أحمد بن أبي دؤاد المعتزلي متوليًا لقضاء القضاة فكان يحمل المعتصم على القول بخلق القرآن، قال إسحاق بن حنبل -عم الإمام أحمد-: كنت أتكلم مع أصحاب السلطان والقواد في خلاص أبي عبد الله، فلم يتم لي أمر، فاستأذنتُ على إسحاق بن إبراهيم[1]، فدخلت عليه وكلمته فقال لحاجبه: اذهب معه إلى ابن أخيه ولا يكلم ابن أخيه بشيءٍ إلا أخبرتني به، قال إسحاق: فدخلت على أبي عبد الله ومعي حاجبه فقلت: يا أبا عبد الله، قد أجاب أصحابك وقد أعذرت فيما بينك وبين الله، وبقيت أنت في الحبس والضيق، فقال أبو عبد الله: يا عم، إذا أجاب العالم تقية والجاهل بجهل متى يتبين الحق؟ قال: فأمسكت عنه.

قال أبو عبد الله: كان إسحاق بن إبراهيم يوجه إلي في كل يوم برجلين يناظراني يقال لأحدهما أحمد بن رباح والآخر أبو شعيب الحجَّام، فلا يزالان يناظراني، فإذا أرادا الانصراف دعوا بقيد حتى صار في رجلي سبعة أقياد قال: ودار بيني وبين الحجَّام كلام فقلت له: ويحك، بعد طلبك العلم والحديث صرت إلى هذا الأمر، وسألته عن علم الله فقال: مخلوق فقلت: كفرت بالله العظيم، فقال لي رجل معه: هذا رسول أمير المؤمنين، فقلت له: هذا كفرٌ بالله العظيم، ثم قلت لصاحبه ابن رباح: هذا زعم أن علم الله مخلوق فكفر، فنظر إليه وأنكر عليه مقالته ثم انصرفا فقال الحجَّام: ما رأيت لهذا نظيرًا، عجبت من هذا الذي هو فيه وهو يعظني ويوبخني.

قال أبو عبد الله: فذهبوا بي إلى دار المعتصم وأدخلت حجرة ليلًا وأغلق عليَّ الباب، وأقعد عليه رجلان وليس في المكان سراج، فأردت أن أتيمم للصلاة فمددت يدي فإذا أنا بإناء فيه ماء وطست موضوع، فتوضأت وقمت أصلي ولا أعرف القبلة، فصليت فلما أصبحت، فإذا أنا أصبت القبلة، ثم جاء رسول المعتصم فقال: أجب، فثقلت عليَّ القيود وكدتُ غير مرة أخِرُّ على وجهي فأخرجت تكتي من سراويلي وشددت بها القيود

(١) صاحب شرطة المأمون ثم المعتصم.

أحملها، وعطفت سراويلي من غير تكة، ثم مشيت إلى أن دخلت عليه والتكة بيدي أحمل بها الأقياد، فإذا هو جالس وابن أبي دؤاد حاضر وقد جمع خلقًا كثيرًا من أصحابه، فلما نظر إليَّ المعتصم سمعته يقول لهم كالمنكر عليهم: أليس قد زعمتم أنه حدث السن؟! هذا شيخ متكهِّل، فلما دنوت سلَّمت فقال لي المعتصم: ادنه، ولم يزل يدنيني حتى قربت منه ثم قال: اجلس فجلست وقد أثقلتني الأقياد فمكثت قليلًا ثم قلت: يا أمير المؤمنين، تأذن لي في الكلام؟ فقال: تكلم فقلت: إلامَ دعا الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قال: إلى شهادة أن لا إله إلا الله، ثم قلت: إن جدك ابن عباس يقول: لما قدم وفد عبد القيس على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سألوه عن الإيمان، فقال: «**أتدرون ما الإيمان؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم قال: «**شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة وأن تعطوا الخمس من المغنم**»[(١)]، إلى ما أُدْعَى وهذه شهادتي وإخلاصي بالتوحيد؟ فقال المعتصم: لولا أني وجدتك في يد من كان قبلي ما عرضتُ لك، ثم قال لعبد الرحمن بن إسحاق: ألم آمرك أن ترفع المحنة؟ قال أبو عبد الله: فقلت: الله أكبر، إن في هذا لفرجًا للمسلمين، ثم قال المعتصم للحاضرين: ناظروه، ثم قال لعبد الرحمن كلمه فقال لي عبد الرحمن: ما تقول في القرآن؟ فسكتُّ فقال لي المعتصم: أجبه، فقلت له: ما تقول في علم الله؟ فسكت فقلت لعبد الرحمن: القرآن من علم الله عَزَّوَجَلَّ ومن زعم أن علم الله مخلوق فقد كفر بالله، فسكت عبد الرحمن، فقال الحاضرون للمعتصم: أكفرنا وأكفرك فلم يلتفت إلى ذلك منهم فقال لي عبد الرحمن: كان الله ولا قرآن فقلت له: أكان الله ولا علم؟ فأمسك ولو زعم أن الله كان ولا علم لكفر.

قال أبو عبد الله: كان القوم إذا انقطعوا عن الحجة عرض لي ابن أبي دؤاد فتكلم، وكلمني مرة فلم ألتفت إليه فقال لي المعتصم: ألا تكلمه؟ فقلت: لست أعرفه من أهل العلم فأكلمه قال: فجعل ابن أبي دؤاد يقول: يا أمير المؤمنين والله إن أجابك لهو أحب

---

(١) رواه البخاري برقم [٨٧]، ومسلم برقم [١٧].

إليَّ من مائة ألف دينار ومئة ألف دينار وعدد من ذلك ما شاء الله فقال المعتصم: والله إنه لفقيه، والله إنه لعالم، وددت أنه يكون معي يصلح من شأني ويردعني أهل الملل، ثم قال لي: يا أحمد، أتعرف صالحًا الرشيدي؟ قلت: قد سمعت باسمه قال: كان مؤدبي وكان صاحب سُنة فسألته عن القرآن فخالفني فأمرت به فوطئ وسحب ثم قال لي: يا أحمد، أجبني إلى شيء لك فيه أدنى فرج حتى أطلق عنك بيدي ولأركبن إليك بجندي ولأطأن بساطك فقلت: أعطوني شيئًا من كتاب الله أو سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما طال المجلس قام ورددت إلى الموضع الذي كنت فيه ووجَّه إليَّ برجلين من أصحاب ابن أبي دؤاد يبيتان عندي ويناظراني، وبعد يوم آخر من المناظرة والرد إلى الحبس يقول أحمد: فلما كان الليل نام من كان معي وأنا متفكر في أمري، فإذا أنا برجل طويل يتخطى الناس حتى دنا مني فقال: أنت أحمد بن حنبل؟ فسكتُّ فقالها ثانيًا فسكتُ فقال ثالثة أنت أبو عبد الله أحمد بن حنبل؟ قلت: نعم قال: اصبر ولك الجنة: قال أبو عبد الله فلما مسني حرُّ السوط ذكرتُ قول الرجل فصبرتُ.

يقول أحمد: وجعلتُ بين العُقَابين[(١)]، فقلت: يا أمير المؤمنين، إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا يحل دمُ امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث....**»[(٢)].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم**»[(٣)]، فبم تستحلُّ دمي ولم آت شيئًا من هذا؟ يا أمير المؤمنين اذكر وقوفك بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ كوقوفي بين يديك، راقب الله.

---

(١) خشبتان يقام الرجل بينهما ليجلد.

(٢) رواه البخاري [٦٨٧٨]، ومسلم [٦٧٦].

(٣) رواه البخاري [٢٥]، ومسلم [٢١].

فلما رأى المعتصم بالله ثبوت أبي عبد الله وتصميمه لان له، فخشي ابن أبي دؤاد من رأفته عليه فقال: يا أمير المؤمنين، إن تركته قيل إنك تركت مذهب المأمون وسخطت قوله، وإنه غلب خليفتين فهاجه ذلك وطلب كرسيًا جلس عليه وقام ابن أبي دؤاد وأصحابه على رأسه ثم قال للجلادين: أروني سياطكم فنظر إليها ثم قال: ائتوني بغيرها فأتوه بغيرها، ثم قال: تقدموا، فيتقدم الرجل منهم فيضربني سوطين فيقول المعتصم: شُدَّ قطع الله يدك ثم يتنحَّى ثم يتقدم الآخر فيضربني سوطين وهو في كل ذلك يقول: شدُّوا قطع الله أيديكم فلما بلغ تسعة عشر سوطًا قام الخليفة إليَّ ثم قال: يا أحمد، علام تقتل نفسك؟ والله إني عليك شفيق، فجعل عجيف ينخسني بقائم سيفه وقال: تريد أن تغلب كل هؤلاء، كلهم؟! وجعل بعضهم يقول: ويلك الخليفة على رأسك قائم وبعضهم يقول: يا أمير المؤمنين، أنت صائم وأنت في الشمس قائم فقال لي: ويحك يا أحمد، ما تقول؟ فأقول: أعطوني شيئًا من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ أو سنة رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حتى أقول به، قال: ثم رجع فجلس ثم قال للجلاد: تقدم أوجع قطع الله يدك، ثم قام الثانية، فقال: يا أحمد أجبني فجعلوا يقولون: ويلك إمامك أمير المؤمنين قائم على رأسك فقال المعتصم: ويحك أجبني إلى شيء لك فيه أدنى فرج حتى أطلق عنك بيدي فقلت: يا أمير المؤمنين أعطوني شيئًا من كتاب الله أو سنة رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حتى أقول به، ثم رجع فجلس فقال للجلادين: تقدموا، فيتقدم الجلاد فيضربني سوطين ويتنحَّى وهو في خلال ذلك يقول: شد قطع الله يدك، قال أبو عبد الله: فذهب عقلي ثم أفقت فإذا الأقياد قد أطلقت عني فقال رجل ممن حضرنا: إنا أكببناك على وجهك وطرحنا على ظهرك بارية[1] ودسناك فما شعرت بشيء من ذلك وأتوني بسويق فقال لي: اشرب وتقيَّأ فقلت: لستُ أفطر -يعني من الصيام- ثم جيء بي إلى دار إسحاق بن إبراهيم فحضرت

(١) بارية: أي حصير.

صلاة الظهر فتقدم ابن سماعة فصلى فلما انفتل من الصلاة قال لي: صليت والدم يسيل في ثوبك؟ فقلت: قد صلى عمر وجرحه يثعب دمًا.

قال المروذي: قال لي أبو عبد الله وهو بين الهنبازين: اخرج انظر أي شيء ترى؟ قال: فخرجت إلى رحبة دار الخليفة فرأيت خلقًا من الناس لا يحصي عددهم إلا الله، والصحف والأقلام في أيديهم والمحابر في أذرعتهم، فقال لهم المرُّوذي: أي شيء تعلمون؟ فقالوا ننتظر ما يقول أحمد فنكتبه، فدخل المرُّوذي إلى أحمد وهو قائم بين الهنبازين فقال: رأيت قومًا في أيديهم الصحف والأقلام ينتظرون ما تقول فيكتبونه، فقال: يا مرُّوذي، أضل هؤلاء كلهم؟ أقتل نفسي ولا أضل هؤلاء كلهم؟ قال الحافظ أبو الفرج ابن الجوزي: قلت: هذا رجل هانت عليه نفسه في الله عَزَّوَجَلَّ كما هانت على بلال نفسه.

وصبر أحمد وثبت حتى جلَّى الله الفتنة وانقضت المحنة قال إسحاق بن راهويه: لولا أحمد بن حنبل وبذل نفسه لما بذلها له لذهب الإسلام.

وقال علي بن المديني: إن الله عَزَّوَجَلَّ أعز هذا الدين برجلين ليس لهما ثالث، أبو بكر الصديق يوم الردة، وأحمد بن حنبل يوم المحنة[1]، رحمة الله على هذا الجبل الشامخ وهذا العالم الصامد الذي ظهر قدره في قدر بلائه وقدر ثباته فجعله الله للناس إمامًا وصار لقبه الذي يعرف به من بعد ذلك إمام أهل السنة، وبالمحن يُعرف الرجال وتظهر حقائق الإيمان الكامنة في صدورهم وقلوبهم.

---

(١) انظر خبر محنة الإمام أحمد في المراجع التالية وقد ذكرتها مختصرة برغم ما ترى من طولها: «سير أعلام النبلاء» للذهبي المجلد الحادي عشر، و«مناقب الإمام أحمد بن حنبل» لابن الجوزي ص [٣٨٥] وما بعدها، «الجوهر المحصل في مناقب الإمام أحمد بن حنبل» لمحمد بن محمد أبي بكر السعدي ص [٦٢] وما بعدها ط هجر.

الجزائري وبطل آخر مجهول:

وهذا هو الشيخ عبد الحميد الجزائري أرسل إليه المندوب الفرنسي في بلاد الشام أيام الاستعمار فقال له: إما أن تقلع عن تلقين تلاميذك هذه الأفكار وإلا أرسلت جنودًا لإغلاق المسجد الذي تنفث فيه هذه السموم ضدنا، فقال الشيخ عبد الحميد: إنك لا تستطيع ذلك، فقال له الفرنسي غاضبًا، وكيف لا أستطيع فقال الشيخ: إذا كنت في عرس علَّمتُ المحتفلين، وإذا كنت في مأتم وعظتُ المعزين، وإن جلست في قطار علمت المسافرين، وإن دخلتُ السجن أرشدتُ المسجونين، وإن قتلتموني ألهبتم مشاعر المسلمين، وخير لك ألا تتعرض للأمة في دينها.

ولما جيء بأحد العلماء المسلمين في تركيا وأدخل على خورشيد باشا الماسوني التركي ذلك الذي قام بإعدام خمسين عالمًا من المسلمين كانوا يطالبون بتحكيم الشريعة وقام بتعليقهم على أعواد المشانق، ثم جاؤوا بهذا الشيخ وأدخلوه عليه، فقال خورشيد الماسوني وهو ينظر إلى الأجساد تتأرجح في الهواء: وهل أنت أيضًا تدعو إلى تطبيق الشريعة يا شيخ؟ فأجاب وهو ينظر إلى أجساد إخوانه الذين أكرمهم الله بالشهادة: اعلم يا خورشيد أنه لو كان لي ألف روح ما ترددتُ أن أجعلها كلها فداء للإسلام، واسمع مني جيدًا يا خورشيد، إنني لا أخشى حكمًا بالإعدام فقد هيأت نفسي بشوق عظيم للذهاب إلى الآخرة لألحق بإخواني الذين سبقوني إلى أعواد المشانق لينالوا الشهادة في سبيل الله.

العظمة لله:

يقول الشيخ محمد بن مبارك الكرماني المؤلف الهندي: طلب السلطان محمد تغلق الشيخ قطب الدين المنور إلى دلهي يعاتبه أو يعاقبه على عدم حضوره لتحية الملك، وقد مرَّ بجداره، فلما حضر البلاط ودخل الديوان رأى الأمراء والوزراء والحكام ورجال البلاط واقفين سماطين صفين، متخشعين مسلحين في هيئة تنخلع منها القلوب، وكان

معه ولده نور الدين، وكان حديث السن لم يزر بلاط الملك في حياته ففزع لهذا المنظر الغريب وامتلأ رعبًا، فناداه الشيخ قطب الدين بصوت عالٍ قائلًا: يا ولدي العظمة لله يقول نور الدين: إني استشعرت في نفسي قوة غريبة بعد هذا النداء، وزالت الهيبة من نفسي وذابت وبدا الجميع عندي كأنهم قطيع من ضأن أو معز[(١)].

أسباب الانتكاس

من عوامل الثبات على الدين أن يعرف المرء الأسباب التي تُحْدِث التراجع وتصد الإنسان وتمنعه من الثبات، والمتأمل في ذلك يرى أن التراجعات تحدث في الغالب أمام شيئين: الإغراءات التي تُفْرِح النفس وتجذبها، والضغوط التي تخيف النفس وترهبها، وجميع الأسباب تتفرع عن هذين الأصلين ونذكر من هذه الأسباب ما يلي:

أولًا - الإغراءات المزيَّنة:

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤]، إن النفوس ضعيفة أمام الرغبات والإغراءات التي يحدثها المبطلون لفتنة المسلم عن دينه أو التي تحدث للمرء في حياته امتحانًا له واختبارًا وإن قائمة المفتونين المنتكسين بسبب الشهوات كبيرة ضخمة، فكم من شباب غرقوا في مستنقع الرذيلة العفن الآسن حتى أعمت قلوبهم وصارت رغبة الواحد منهم وشهوته هي كل شيء، قد صار في أسرها لا يفيق منها لا سيما وقد اجتمعت على إضلاله فتنة شياطين الإنس والجن، وفتنة النساء هي الأخرى أشد وأخطر الفتن على الإطلاق قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء**»[(٢)].

---

(١) «الصلاة لماذا؟» للدكتور المقدم حفظه الله [٦٦-٦٧] ط دار العقيدة.

(٢) رواه البخاري برقم [٥٠٩٦]، ومسلم برقم [٢٧٤٠].

إن الآلة الإعلامية الموجَّهة إلى ديار المسلمين قد أفرزت جيلًا هشًا ضعيف الصلة بالدين لا يعنيه -في الغالب- إلا شهوات النفس الرخيصة، والغالبية منهم غارقون في اللهث وراء تلك النزوات ولا يثبت أمامها إلا من وفقه ربه جَلَّجَلَالُهُ، ومن الإغراءات التي تحدث انتكاسة القلب استلام المناصب، أو حصول ثروة من المال، أو مخالطة الوجهاء والمترفين وأصحاب المنازل العالية في الدنيا وقلَّما يثبت القلب عند ذلك، والثابت من ثبته الله.

ثانيًا- الضغوط المؤلمة:

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠]، إذا أرهبك أهل الباطل فإنما يردُّ ذلك عنك تذكُّر عظمة الله وقدرته وعزته وحكمته ورحمته.

ورحم الله شيخ الإسلام الثابت الصامد ابن تيمية حين قال: لن يخاف الرجل غير الله إلا لمرض في قلبه، فإن رجلًا شكا إلى أحمد بن حنبل خوفه من بعض الولاة فقال: لو صححت لم تخف أحدًا.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ماذا يصنع أعدائي بي أنا جنتي وبستاني في صدري، إني أنَّى رحت فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة، وكان يقول في محبسه في القلعة: لو بذلت لهم ملء هذه القلعة ذهبًا ما عدل عندي شكر هذه النعمة، أو قال: ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير. ونحو هذا من الكلام يقول ابن القيم: وقال لي مرة: المحبوس من حبس قلبه عن ربه تعالى، والمأسور من أسره هواه[1].

ثالثًا- التأثر بمن حوله:

من أسباب الانتكاس ما قد يراه الإنسان في أخلاق الناس وانفعالاتهم وتأثيراتهم عند المخالطة معهم، إن من الناس من أُتِيَ من قِبَل زوجته وأولاده حينما يضغطون عليه في

---

(١) «الوابل الصيب من الكلم الطيب» [٦٩-٧٠] ط الريان.

طلب محرم، كأن يطلبون منه التوسعة عليهم بمال حرام، أو إدخال منكرات إلى البيت، أو حضور الحفلات المختلطة والمليئة بالموسيقى والغناء واللهو والعبث، وكل ذلك ينبغي أن يتعامل معه بحزم ولا يقبل أي مساومة على أمر محرم، وليعلم أهله من حاله أن أي كلمة في هذا لا تجدي ولا تؤثر إذ لو استجاب مرة لمطالبهم لتمادوا في ذلك ولأوقعوه في براثن الفتن، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]، وذلك لأنهم قد حملوا الرجل على قطيعة رحمه ومعصية ربه والانشغال عن العمل الصالح ولهذا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التغابن: ١٥].

وكذلك من الناس من ينتكس لأنه يرى جمهور الناس من حوله في معاصٍ وأن الكثرة الكاثرة في غفلة فينخرط معهم ويترك نور الهداية ويزهد في الحق بعدما تبيَّن له وهذا حال الإمَّعة الذي ليس له شخصية حازمة ونفسية كريمة بل هو مع الناس إن أحسن الناس أحسن وإن أساء الناس أساء، وإن ضل الناس ضل وإن كفر الناس كفر، فهو ينزلق مع التيار ليس له من العلم واليقين والإيمان ما يثبته ويحفظه، ألا فليعلم أنه سوف يموت وحده، ويحاسب بين يدي الله وحده، ولن ينفعه أحد من الناس قط بل إن كل حميم سيبرأ من حميمه ويفر كل قريب من قريبه وكل امرئ في هذا اليوم رهين بعمله، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧]، ومن الناس من ينتكس فإذا سألته قال: رأيت من بعض الملتزمين تصرفات وسلوكيات سيئة جدًا نقول: هؤلاء من الناس فيهم الصالح وفيهم ضعيف الالتزام، والدين لا يعرف بالرجال بل يعرف الرجال بالدين، وليس أحد من الناس حجة على الشرع، وإنما الشرع حجة على كل أحد فعندك القرآن والسنة وهدي السلف حجة عليك فَتعلَّق بالكتاب والسنة ولا تتعلق بفعل فلان أو فلان.

ومن الناس من ينتكس إذا انفتح على أوساط خارجية، كالطالب المنتقل من الريف إلى الجامعة في المدينة حيث التبرج والاختلاط، والصخب الفكري والمذاهب الهدامة والأفكار المنحرفة البعيدة عن كتاب الله وسنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فينبهر بما يرى من أضواء الفتنة ويعمى عن الحق ويهجر أهله ويهلك مع الهالكين في تيه الغفلة والبعد عن الله، ولو عقل لجعل من كتاب الله أنيسًا ولبحث عن رفقة صالحة تثبته وتؤنسه وتحثه على الخير والهدى، ولن يعدم أبدًا صاحبًا صالحًا على طريق الحق في أي وسط ولكن ما عليه إلا أن يفتش ويبحث عنه في مظان وجوده، وكذلك الحال لمن يسافر خارج البلاد فيرى التحلل والبعد عن رقابة المجتمع الذي كان محيطًا به فينسلخ من جلده ويغير معالم حياته ويترك الصلاة ويلهو بالشهوات، ولو كان موفقًا لعلم أن الله رقيب عليه في كل حال، يسمع قوله ويرى عمله، وقد يذله بسوء عمله في أي وقت ويجعله عبرة للمعتبرين، ولو كان موفقًا لصنع ما يمليه عليه دينه وترشده إليه التقوى من صحبة الصالحين والبعد عن مواطن الفتن والحذر كل الحذر مما يغضب الله جَلَّ جَلَالُهُ، فالله رقيب عليه ناظرٌ إليه، فليكن توقيره لرقابة الله أعظم من توقيره لنظر الناس.

ومن علامة حب الله لك أن يحول بينك وبين أسباب الفساد ولا يهلك الله إلا هالك فلا تكن من الهالكين.

رابعًا- قسوة الواقع:

وذلك حينما يرى الجولة الآن لأمم الكفر، ويرى الهزيمة تلحق بأمته في مجالات متعددة، ويرى الأنانية المفرطة والمادية الخسيسة، والتدني في مستوى المعيشة والتخلف الحضاري وسبْق الكافرين في ذلك مع حربهم للإسلام وانتهاكهم لمقدساته وإذلالهم للمسلمين دون رادع أو زاجر فينهزم نفسيًا وتتحطم آماله ويستجيب لأي فتنة تعرض له، ولمثل هذا نقول: إن للكون سننًا ثابتة لا تتغير ولا تتبدل، ومن سنن الله الكونية أن الأمة إذا أعرضت عن دينها ذلت وهانت وأن للتقدم المادي والحضاري أسبابًا من أخذ

بها يحصل له ما يريد، ولا يكون ذلك إلا بكفاح أبناء الأمة وعملهم الدؤوب لرفعة شأنها وإعلاء مكانتها بين الأمم، فالملوم أنت لتقصيرك وإلا فأين دورك؟ وما الذي قدمته أنت لإعزاز الأمة؟! ما الذي بذلته أنت لنصرة الله ورسوله؟! أصبحت لا تحسن إلا الكلام والنقل والجعجعة الفارغة أين عملك؟ أين تضحيتك؟! لماذا لا تكون أنت داعية إصلاح وأداة بناء وتقويم، وإرشاد وتعليم؟ ولماذا تنظر إلى دنيا الكافرين ولا تنظر لمآلهم أليس الله قد قال: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦-١٩٧]، ألم يقل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر**»[(١)]، وماذا كان عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة من مقومات الدنيا حتى انتصروا على عدوهم وحتى دانت لهم الدنيا كلها وأذلوا كسرى وقيصر؟! إنه بالإيمان، وبالإيمان وحده تكون العزة والنصرة والتمكين، فلا تكن من الغافلين، وابذل من وقتك ومالك لنصرة هذا الدين إن كنت من الصادقين.

الثبات عند فتنة الشهوات

من أشد الفتن التي ترد على العبد فتنة الشهوات المزينة التي تميل إليها النفس وتندفع إليها، وإذا خرجت المرأة من بيتها استشرفها الشيطان وزينها وأغواها وسوَّل لها أن تتبرج وأن تظهر مفاتنها وتفتن غيرها من النساء بتقليدها والوقوع فيما وقعت فيه من تبرج مُخْزٍ واختلاط مشين، ولقد بين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطورة هذه الفتنة فقال: «**ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء**»[(٢)]، ولما علم أعداء الأمة خطورة هذه الفتنة أغرقوها بوابل من الإغراءات وحاولوا بكل سبيل إغواء شباب الأمة وإضلالهم وحرفهم عن دينهم إلى براثن الرذيلة وأسر الشهوات المضلة المهلكة، ولكن المؤمن الموفق

---

(١) رواه مسلم برقم [٢٩٥٦].

(٢) رواه البخاري [٥٠٩٦]، ومسلم [٢٧٤٠].

يعلم حقيقة الأمر، وخباثة ذلك المكر فهو يفر من الفتن ويبتعد عنها ولا يعرض بصره وقلبه وأذنه لها ويأخذ بسبل العفة التي تحفظ عليه دينه وإيمانه.

وكم تخوَّف السلف الصالحون من هذه الفتنة المهلكة المدمرة التي تشتهيها النفوس وتميل إليها القلوب بطبيعتها وذلك لتعلقها بهذه الغريزة المركبة في الإنسان وهي من أشد الغرائز فيه، قال معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ابتليتم بفتنة الضراء فصبرتم، وستبتلون بفتنة السراء، وأخوف ما أخاف عليكم فتنة النساء»[(١)].

عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب قال: ما يئس الشيطان من شيء إلا أتاه من قبل النساء، وقال لنا سعيد وهو ابن أربع وثمانين سنة وقد ذهبت إحدى عينيه وهو يعشو بالأخرى: ما من شيء أخوف عندي من النساء[(٢)].

إن المؤمن الصادق يعرض عن مواطن الفتنة ويبتعد عنها بكل طاقته وإذا عرضت له فتنة ثبت وخاف مقام الله وصبر عن معصية الله، وله في يوسف الصديق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسوة عظيمة ولقد ذكر الله موقفه في كتابه الكريم ليكون حجة على المفتونين وقدوة للمؤمنين، وقد ذكرتها قريبًا مفصلة.

ومن مشاهد البطولة والثبات هذا الموقف لمرثد بن أبي مرثد الغنوي الذي كان يحمل الأسارى من مكة ويأتي بهم إلى المدينة قال: وكانت امرأة بغيٌّ بمكة يقال لها عناق وكانت صديقة له في الجاهلية، وإنه واعد رجلًا من أسارى مكة يحمله قال: فجئت حتى انتهيت إلى ظل حائط من حوائط مكة في ليلة مقمرة قال: فجاءت عناق فأبصرت سوادًا تحت ظل الحائط فلما انتهت إليَّ عرفتني فقالت: مرثد؟ فقلت: مرثد فقالت: مرحبًا وأهلًا هلم فبت عندنا الليلة قال: فقلت: يا عناق، حَرَّم الله الزنا فقالت: يا أهل الخيام هذا رجل يحمل أسراكم، قال: فتبعني ثمانية ودخلت الحديقة فانتهيت إلى غار أو كهف فدخلت فيه،

(١) «صفة الصفوة» (١/ ٤٩٧) ط دار الوعي.

(٢) المصدر السابق (٢/ ٨٠).

فجاءوا حتى قاموا على رأسي فبالوا فظلَّ بولهم على رأسي فأعماهم الله عني، ثم رجعوا فرجعت إلى صاحبي فحملته وكان رجلًا ثقيلًا حتى أتيت به المدينة، فأتيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقلت: أنكح عناقًا؟ مرتين فأمسك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلم يرد عليَّ شيئًا حتى نزلت: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ [النور: ٣]، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا مرثد، الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة فلا تنكحها**»(١).

وذكر ابن الجوزي وغيره أن امرأة جميلة وكان لها زوج فنظرتْ يومًا إلى وجهها في المرآة فقالت لزوجها: أترى أحدًا يرى هذا الوجه ولا يفتن به؟ قال: نعم قالت: من؟ قال عبيد بن عمير، قالت: فائذن لي فيه فلأفتننه، قال: قد أذنت لك.

قال: فأتته كالمستفتية فخلا معها في ناحية من المسجد الحرام فأسفرت عن وجه مثل فلقة القمر فقال لها: يا أمة الله استتري فقالت: إني قد فتنت بك قال: إني سائلك عن شيء فإن أنت صدقتني نظرت في أمرك، قالت: لا تسألني عن شيء إلا صدقتك، قال: أخبريني لو أن ملك الموت أتاك ليقبض روحك أكان يسرُّك أن أقضي إليك هذه الحاجة؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت، قال: فلو دخلت قبرك وأجلست للمساءلة أكان يسرُّك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت، قال: فلو أن الناس أعطوا كتبهم ولا تدرين أتأخذين كتابك بيمينك أم بشمالك أكان يسرُّك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت، قال: فلو أردت الممر على الصراط ولا تدرين هل تقعين أو تنجين أكان يسرُّك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت، قال: فلو جيء بالميزان وجيء بك فلا تدرين أيخف ميزانك أم يثقل أكان يسرُّك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت، قال: فلو وقفت بين يدى الله للمساءلة أكان يسرُّك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت، قال: فاتقي الله فقد أنعم الله عليك وأحسن إليك، قال: فرجعت

---

(١) رواه الترمذي برقم [٣١٧٧]، وأبو داود برقم [٢٠٥١]، والنسائي برقم [٣٢٢٨]، وصححه الألباني في الإرواء برقم [١٨٨٦].

إلى زوجها، فقال: ما صنعت؟ قالت: أنت بطال ونحن بطالون، فأقبلت على الصلاة والصوم والعبادة فكان زوجها يقول: مالي ولعبيد بن عمير أفسد عليَّ امرأتي كانت في كل ليلة عروسًا فصيَّرها راهبة(١).

وقال ابن أبي عمامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن رجلًا أحب امرأة وأحبته فاجتمعا فراودته المرأة عن نفسه فقال: إن أجلي ليس بيدي وأجلك ليس بيدك فربما كان الأجل قد دنا فنلقى الله عاصيين(٢).

الثبات عند الممات

إن الخواتيم مواريث السوابق، ومن عاش حياته بخير ختم له بخير ومن كان له رصيد من الصالحات والطاعات ثَبَّتَهُ الله عند الممات، قال تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وهذا صديق الأمة الأكبر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لما احتضر جاءت أم المؤمنين عائشة وتمثلت بهذا البيت:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يومًا وضاق بها الصدر

فكشف الصديق عن وجهه وقال: ليس كذلك ولكن قولي: ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [ق: ١٩]، انظروا ثوبيَّ هذين فاغسلوهما، وكفنوني فيهما فإن الحي أحوج إلى الجديد من الميت(٣).

وهذا فاروق الأمة عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لما طعنه أبو لؤلؤة المجوسي وهو في صلاة الصبح حمل إلى داره، وما قصر في ذكر الله وإقامة الصلاة فصلى وإن جرحه ليثعب دمًا، وعن المسور بن مخرمة أن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لما طعن جعل يغمى عليه فقيل: إنكم لن تفزعوه بشيءٍ مثل الصلاة إن كانت به حياة فقالوا الصلاة يا أمير المؤمنين، الصلاة

(١) «ذم الهوى» لابن الجوزي ص [٢١٣] ط دار الكتب الإسلامية.

(٢) «روضة المحبين ونزهة المشتاقين» ص [٣٤٠] ط دار الكتب العلمية.

(٣) «الثبات عند الممات» لابن الجوزي ص [٩٩] ط مؤسسة الكتب الثقافية بيروت.

قد صُلِّيَتْ فانتبه فقال: الصلاة ها الله إذًا، ولاحظ في الإسلام لمن ترك الصلاة، فصلى وجرحه ينبعث دمًا[١]، بل لا يترك عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ واجب النصح والدعوة إلى الله تعالى والتعليم والإرشاد وهو في سياق الموت كما في صحيح البخاري من حديث عمرو بن ميمون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفيه: ثم أُتي بلبن فشربه فخرج من جوفه فعلموا أنه ميت، فدخلنا عليه وجاء الناس يثنون عليه وجاء رجل شابٌ فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لك من صحبة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقدم في الإسلام ما قد علمت، ثم وليت فعدلت ثم شهادة قال: وددت أن ذلك كفافًا لا عليَّ ولا لي، فلما أدبر إذا إزاره يمسُّ الأرض قال: ردوا عليَّ الغلام قال: ابن أخي، ارفع ثوبك فإنه أبقى لثوبك وأتقى لربك[٢].

وهذا أمير المؤمنين أمير البررة وقتيل الفجرة ذو النورين وصاحب الهجرتين عثمان ابن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما أحاط به الثوار اللئام وعظهم وبين لهم قبيح ما يقدمون عليه من قتل لكن قلوبهم عميت عن الحق وصَمَّمُوا على قتله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فقال لامرأته: افتحي الباب، ووضع المصحف بين يديه وذلك أنه رأى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الليل يقول له: أفطر عندنا الليلة[٣]، ودخل عليه المجرمون فقتلوه شهيدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال حماد بن زيد: رحم الله أمير المؤمنين، حوصر نيِّفًا وأربعين ليلة لم تبد منه كلمة يكون لمبتدع فيها حجة[٤].

وهذا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي طعنه الخارجي المجرم عبد الرحمن بن ملجم وهو ماضٍ إلى صلاة الصبح، يقول ابنه محمد بن علي بن أبي طالب: إنه لما ضُرِبَ أوصى بنيه ثم لم ينطق إلا بلا إله إلا الله حتى قبضه الله[٥].

(١) «مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب» لابن الجوزي [٢٢٧] ط دار الكتب العلمية.

(٢) رواه البخاري برقم [٣٧٠٠].

(٣) «الرياض النضرة في مناقب العشرة» (١/ ٢٢٢)، و«الطبقات» لابن سعد (٣/ ٧٣) ط دار صادر.

(٤) «المحتضرين» لابن أبي الدنيا ص [٥٩].

(٥) «الثبات عند الممات» ص [١٠٣].

ونترك الصحابة إلى أجيال أخرى من بعدهم، فهذا محمد بن المنكدر، وقد أتاه صفوان بن سليم وهو في الموت فقال: يا أبا عبد الله لكأني أراك قد شق عليك الموت؟ فما زال يهوِّن عليه الأمر، ويتجلى عن محمد حتى لكأنَّ وجهه المصابيح، ثم قال له محمد: ولو ترى ما ألاقيه لقرت عينك، ثم قُضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وهذا سعيد بن جبير، لما أتى إلى الحجاج قال له: أنت الشقي بن كسير؟ قال: لا، إنما أنا سعيد بن جبير، قال: لأقتلنك قال: أنا إذًا كما سمتني أمي سعيدًا قال: اضربوا عنقه فقال: دعوني حتى أصلي ركعتين، وفي رواية أنه لما أراد قتله قال: وجهوه إلى قبله النصارى فقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: ١١٥]، فقال: اجلدوا به الأرض فقال: قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طٰهٰ: ٥٥]، فقال: اذبح فما أنزعه لآيات الله منذ اليوم فقال: اللهم لا تسلطه على أحدٍ بعدي[(١)].

وهذا الإمام سليمان التيمي، قال لابنه المعتمر بن سليمان لما حل به الموت: يا بني حدثني بالرخص لعلي ألقى الله تعالى وأنا أحسن الظن به[(٢)].

وهذا المجدد للقرن الثاني عمر بن عبد العزيز عليه رحمة الله قال: أجلسوني فأجلسوه، فقال: أنا الذي أمرتني فقصرت، ونهيتني فعصيتُ -ثلاثًا- ولكن لا إله إلا الله، ثم أحدَّ النظر وقال: إني لأرى حضرة ما هم بإنس ولا جن ثم قُبض[(٣)].

وهذا الملك الصالح صلاح الدين يقول عنه ابن شداد: وبات تلك الليلة -رحمة الله عليه- على حال المنتقلين إلى الله تعالى، والشيخ أبو جعفر يقرأ عنده القرآن ويذكره بالله

---

(١) «البداية والنهاية» للحافظ ابن كثير (٩/ ١١٦)، و«السير» للذهبي (٤/ ٣٣٨) وما بعدها.

(٢) «الثبات عند الممات» ص [١٤٨].

(٣) «السير» للذهبي (٥/ ١٤١).

تعالى وكان ذهنه غائبًا من ليلة التاسع لا يكاد يفيق إلا في بعض الأحيان، وذكر الشيخ أبو جعفر أنه لما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ [الحشر: ٢٢]، سمعه وهو يقول رحمة الله عليه: صحيح، ولقد حكي لي أنه لما بلغ الشيخ أبو جعفر إلى قوله تعالى: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ [التوبة: ١٢٩]، تبسَّم وتهلل وجهه وسلمها إلى ربه[(١)].

وهذا مؤذن في عصرنا يصاب بوعكة وآلام شديدة، ثم تحدث له غيبوبة ويظل فاقدًا للوعي مدة أسبوع كامل لا يعرف الليل من النهار، وكان ابنه يجلس عند رأسه ويشرف على تمريضه وعند منتصف الليل أفاق وقال لابنه: يمِّمْني فيَمَّمه ولده، فاستقبل الرجل القبلة وجلس، ثم أذن الأذان كاملًا ولما انتهى من الأذان كان آخر كلامه: لا إله إلا الله، ثم وضع جنبه على الأرض ومات رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ومشاهد الثبات عند الممات كثيرة مؤثرة أسأل الله جَلَّجَلَالُهُ أن يرزقني وإياكم الثبات عند الممات وأن يختم لنا بخير.

اثبت ثبتك الله

أي أخي، الفتن في عصرنا كالحة مفزعة، شديدة مزلزلة كثيرة متنوعة ولكن ربك اصطفاك للإيمان فكن بإيمانك أقوى، وكن بعقيدتك وتوحيدك أثبت، وكن بدينك مستمسكًا.

الثبات صفة المؤمنين الموقنين وعدم الثبات صفة المنافقين الذين قال الله عنهم: ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ [التوبة: ٥٧]، أي: يسرعون ويهرعون لأنهم ليس لهم ملكة الثبات، وليس لهم وليٌ ولا نصير، وأما أنت فالله وليك والله نصيرك والله حافظك، فهل تريد بعد ذلك من شيءٍ؟!

---

(١) «النوادر السلطانية» ص [١١٥]، «البداية والنهاية» (١٣/ ٥).

أي أخي، الحق واحد واضح، ولن يكون حق قط إلا في كلام الله ورسوله، وكل ما سوى الإسلام باطل وضلال وكفر وعمى، وكفى بك شرفًا أن يصطفيك الله موحدًا ومتبعًا لسيد الخلق وإمام المتقين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهل بعد هذا الشرف من شرف؟! أنت عبد الله!! أنت وليُّ الله فمالك لا تصبر ابتغاء وجه الله؟! مالك لا تثبت ثقة بوعد الله؟! اصبر صبَّرك الله، واثبت ثبتك الله.

قال تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ [طه: ١٣٠]، وقال تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا ﴾ [الإنسان: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴾ [الأحزاب: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم: ٦٠]، اثبت كما ثبت الصالحون فأنت منهم، واصبر كما صبروا فهم سلفك، واستيقن بالحق كما استيقنوا فهم قدوتك، وسر على دربهم، واهتد بهديهم فما أسرع اللحاق بهم واثبت ثبتك الله.

وسائل الثبات

الثابت من ثبته ربه والمخذول من خذله الله، ولن تثبت على الحق إلا إذا ثبتك الله، قال تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وفي الآية إشارة إلى أن تحقيق الإيمان من أهم سبل الثبات على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ [محمد: ٧]، قال تعالى: ﴿ إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ﴾ [الأنفال: ١١]، وللثبات على الحق وسائل تعين عليه وتحققه بإذن الله عَزَّوَجَلَّ ومن هذه الوسائل ما يلي:

١- الاستعانة بالله:

فمن استعان بالله أمَدَّه وأعانه، وحفظه وحفظ إيمانه، ومن خذله الله فهو المخذول ولقد عَلَّمنا ربنا عَزَّوَجَلَّ أن نستعين به في كل أمر، بل لقد فرض الله علينا أن نطلب منه كل يوم سبع عشرة مرة أن يعيننا على عبادته سبحانه ففي صلاة الفريضة نقرأ كل يوم قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفَاتِحَة: ٥]، قال الحافظ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يعني إياك نوحِّد ونخاف ونرجوك يا ربنا لا غيرك ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على طاعتك وعلى أمورنا كلها، وقال قتادة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يأمركم أن تخلصوا له العبادة وأن تستعينوا به على أموركم، وإنما قدم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ لأن العبادة له هي المقصودة، والاستعانة وسيلة إليها[(١)]، وعَلَّم رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعَلَّم الأمة كلها في شخص معاذ أن يقول بعد كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك كما عند أبي داود بسند صححه النووي والألباني من حديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخذ بيده وقال: «**يا معاذ، والله إني لأحبك، فقال: أوصيك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»[(٢)]، وأوصى بذلك معاذٌ الصنابحيَّ، وأوصي بها الصنابحيُّ أبا عبد الرحمن وأوصى بها أبو عبد الرحمن عقبة بن مسلم، وأوصيك وأوصي نفسي بها وعليك أن توصي بها غيرك، أي أخي، استعن بربك على الثبات يثبتك، فلا ثبات لك إلا من الله، ولن تثبت إلا إذا استعنت بالله ولذلك كانت الوسيلة الثانية هي.

٢- التضرع والدعاء:

إذا ألهمت الدعاء فإن الإجابة قريبة؛ لأن ربك وعدك الاستجابة لدعائك فقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غَافِر: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم

---

(١) «المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير» ص [٢٥] ط دار السلام.

(٢) رواه أبو داود [١٥١٩]، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» [١٥٩٦].

بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ ﴾ [الأنعام: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٢]، لو تضرع العبد ودعا وتذلل بين يدي الله جَلَّجَلَالُهُ وألحَّ في الدعاء؛ لكشف الله عنه كربه وفرج عنه بلاءه وكانت تلك هي سنة الصالحين وصفة المؤمنين في كل وقت وحين، قالت القلة المؤمنة طالوت وجنوده: ﴿ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٥٠-٢٥١]، وقال أتباع الأنبياء الذين قاتلوا معهم والذين ماوهنوا لما أصابهم في سبيل الله وماضعفوا وما استكانوا: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٧-١٤٨]، وهذا رسولنا وأسوتنا وقدوتنا محمد رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يكثر من الدعاء بالثبات كما روى الترمذي وغيره عن أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: كان رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يكثر أن يقول: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**» فقلت: يا رسول الله آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا؟ قال: «**نعم إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلبها كما يشاء**»(١)، وكان من دعائه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد، وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك**»(٢)، وقال النبي الكريم يوسف بن يعقوب عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: ﴿ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾ [يوسف: ٣٣]، فإذا ابتليت يا عبد الله فلا تكف عن التضرع والدعاء، بل استمر واستغفر وادع وتذلل لربك ودُم على ذلك حتى يفرج الله عنك ويرزقك من قبل ذلك الثبات ولا يملك تثبيتك على الإيمان وحفظك من الفتن وسلامتك منها إلا الله جَلَّجَلَالُهُ؛ فثق به واستعن به، ولا تغفل عن الدعاء قط فالله يحب منك الإلحاح والتذلل في الدعاء.

---

(١) رواه الترمذي برقم [٢١٤٠]، وابن ماجه برقم [٣٨٣٤]، وأحمد برقم [١٢١٠٧] وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» برقم [٣٠٩٢]، وفي «صحيح الترمذي» برقم [٢٧٩٢].

(٢) رواه الترمذي برقم [٣٤٠٧]، وصححه الألباني في الصحيحة برقم [٣٢٢٨].

٣- قراءة القرآن بالتدبر والعمل به:

من أعظم وسائل الثبات تلاوة القرآن، بل هو وسيلة الثبات العظمى وسبيل الاستقامة الأعلى، فمن اعتصم به نجَّاه الله، ومن تدبره وتلاه ثبته الله وسدده وأيده وقوَّاه، وقد بيَّن ربنا سبحانه أنه نزَّل القرآن منجمًا مفرقًا على رسوله محمد لكي يحصل به الثبات، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان: ٣٢]، وفي القرآن مواساة وتسلية للمؤمنين وتسرية عن المبتلين من خلال تدبر قصص الأنبياء والمرسلين وكيف كانت العاقبة للمتقين وكيف أخذ الله الكافرين وأذل الظالمين ودمدم أهل الباطل المعتدين، ففي قصص الأنبياء حث على الثبات وتعلُّم للصبر واليقين والثقة في وعد الله ونصره، قال تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [هود: ١٢٠]، يقول القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ ﴾ أي من أخبارهم وصبرهم على أذى قومهم ﴿ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ أي على أداء الرسالة والصبر على ما ينالك فيها من الأذى وقيل: نزيدك به تثبيتًا ويقينًا قال ابن عباس: ما نشُدُّ به قلبك، وقال ابن جريج: نصبِّر به قلبك حتى لا تجزع[1]، وإذا قرأ المؤمن القرآن بالتدبر وجد فيه أنسًا لقلبه، وبشارة بكشف كربه، ودواء للجزع الذي يجده في نفسه لاسيما إذا قام به في جوف الليل فإن ذلك يكون أدعى للتدبر وأرجى للفهم، وقد بين ربنا أن القرآن شفاء، وكونه شفاء فإن هذا يعني أنه يعالج أمراض الشبهات المقنَّنة الخبيثة وأمراض الشهوات المتأججة في الصدور والنفوس، والإقبال على تلاوة القرآن والمداومة على ذلك بالتدبر كفيل بدوام الثبات، وحصول برد اليقين، قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٨٢]، ففي القرآن شفاء لما في الصدور، ودواء لما في النفوس، وإذا طهرت القلوب بالقرآن كانت أقوى على الثبات.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٩٥) ط التوفيقية.

٤- الإكثار من القربات واجتناب المحرمات:

إن من أهم عوامل الثبات تقوية الإيمان في القلب، وذلك بالإكثار من التقرب إلى الله تعالى بالطاعات والنوافل، ومن قبل ذلك اجتناب المعاصي؛ وذلك لأن الطاعة غذاء القلب ومادة حياته كما أن المعصية سُمٌّ للقلب وهي مادة مرضه وموته، وقد قال ربنا جل وعلا: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦]، وكلما ازدادت طاعة العبد لربه وكانت خالصة متقنة كلما كان العبد أحب إلى الله وأحق بتسديد الله له وحفظ الله إياه.

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟**» قالوا: بلى يا رسول الله قال: «**إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط**»(١).

واعلم -أيها الحبيب- أن المعاصي سبب لكل شر وبلاء ومحنة تنزل على العبد، قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، وما من مصيبة أعظم من الانتكاس عن الحق والسقوط في الضلال، والانحراف عن الهدى وسلوك سبيل الشيطان والهوى، وإن السبب غالبًا يكون في معاصٍ تُسمِّم القلب وتمرضه، وتضعف الإيمان فإذا وردت عليه فتنة أشربها وتأثر بها وآثرها وعُمي قلبه عن الحق بعد ما تبين، وما طُلبتْ السلامة من الفتن بمثل ترك المعاصي والإقبال على الطاعات ابتغاء وجه الله تعالى؛ ولهذا قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم**»(٢)، قال الإمام المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ: المراد الحث على المسارعة بالعمل الصالح قبل تعذُّره أو تعسُّره بالشغل عما يحدث من الفتن المتكاثرة والمتراكمة كتراكم ظلام الليل(٣)، فتزوَّد

---

(١) رواه مسلم برقم [٢٢١].

(٢) رواه مسلم برقم [١١٨].

(٣) «فيض القدير» (٣/ ٢٥٢)ط، دار الكتب العلمية، «شرح النووي على مسلم» (٢/ ١٣٣).

من الطاعات ما استطعت فإنها سبيل الثبات عند ورود الفتن اللهم سدِّد قلوبنا وألسنتنا، وألهمنا رشدنا، وحبِّبْ إلينا طاعتك، واجعلها قرة عين لنا؛ إنك وليُّ ذلك والقادر عليه.

٥- صحبة الصالحين:

الصاحب ساحب، والقرين بالمقارن يقتدي، ومصاحبة المتقين تسري بركتها في القلوب، وينتشر خيرها في النفوس، وهي سبيل مهمة من سبل الثبات على الدين، إن الأجواء الإيمانية الأخوية النقية لها أثرها الملحوظ في الثبات، والمرء بإخوانه، ينتفع بمجالستهم ونصائحهم ودعائهم والنظر إليهم ويأنس بهم وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية، وخير ما استفاد المرء بعد تقوى الله أخًا صالحًا ناصحًا مخلصًا يثبته وينصحه، ويحوطه وينفعه، قال زين العابدين علي بن الحسين: إنما يجلس الرجل إلى من ينفعه في دينه وقال الحسن البصري: إخواننا أحب إلينا من أهلينا؛ لأن إخواننا يذكروننا بالله وأهلونا يذكروننا بالدنيا.

ويدخل على ذلك القرب من العلماء الربانين والدعاة الصادقين الذين لم يخل منهم زمان ولا مكان بفضل الله جَلَّجَلَالُهُ وإن كانوا قلة؛ فالقرب منهم أمانٌ ولاسيما عند ورود الفتن وكثرة الشبهات والشهوات، وإن تعللت بأن مجالستهم أمر يصعب فلا أقل من أن تستفيد من علمهم والنظر إليهم في دروسهم ومحاضراتهم التي سوف تستشعر فيها دفء الإيمان ورقة القلب وأنسه وثباته، وانتفاعه بالحق الذي يسمع، وبالنظر في وجوه الصالحين. فصاحب الصالحين تُنسب إليهم، كن معهم تكن منهم، فإنما يُعْرَفُ المرء بمن يجلس إليهم ويجلسون إليه وبمن يصاحبهم ويصاحبونه

أنت في الناس تقاس ... بالذي اخترت خليلا
فاصحب الأخيار تعلو ... وتنل ذكرًا جميلا

ويدخل في هذا الباب كذلك مطالعة سير السلف والوقوف على أخبارهم ومواقفهم في الصبر والثبات على الحق، ففي مطالعة أخبارهم رؤية لهم واقتداءً بهم،

وأختم هذا البند المهم بقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية عليه رحمة الله كما في الوابل الصيب:

«وعلم الله، ما رأيت أحدًا أطيب عيشًا منه قط مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدها، وما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشًا وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأسرهم نفسًا، تلوح نضرة النعيم على وجهه، وكنا إذا اشتد بنا الخوف، وساءت منا الظنون، وضاقت بنا الأرض أتيناه، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه، فيذهب ذلك كله وينقلب انشراحًا وقوة ويقينًا وطمأنينة[1]، أقول: ومن اقترب من أهل العلم الربانيين وجالسهم وجد نحوًا مما قاله ابن القيم ولابد وكلٌّ على قدره وقدر شيخه.

٦- فهم السنن الربانية:

إن الله عَزَّوَجَلَّ قد أودع في هذا الكون سننًا لا تحابي أحدًا ولا تجامل أحدًا، ومن ذلك أن النصر للأمة منوط بتمسكها بدينها، ومتى أعرضت عن دينها وانشغلت الأمة بالدنيا عن الدين فإن الهزيمة لن تفارقها، ولن يعود لها النصر والتمكين إلا إذا عادت الأمة إلى الله، قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، إن كل ما يحدث في العالم الآن من قهر للمسلمين وقتل وتشديد وانتهاك للمقدسات والأعراض، ونهب الثروات والمقدرات كل ذلك يجري بقدر الله وإذنه، ولا يخرج شيء في الكون قط عن حكمته وتدبيره، إن الأمة لما فرَّطَت في دينها وصارت الشهوات عند الغالبية العظمى منها هي المقدمة، وصارت رغبات النفس هو الأولى والأحق بالاهتمامات، وصار الدين رخيصًا عند كثير من الناس؛ كان لابد أن تُضْرَبَ الأمة على أمِّ رأسها لكي تستفيق وتعي حقيقة الأمر، ولكي تسارع بالعودة الحقيقية إلى الله جَلَّجَلَالُهُ، وهذا الذي يقع للمسلمين وإن كان

---

(١) «الوابل الصيب» ص [٧٠] ط دار الريان.

يؤلم قلوبنا ويكدر نفوسنا، إلا أننا نؤمن أن من وراء ذلك حكمًا قد لا تصل إليها عقولنا القاصرة، ولكن الله يحكم في خلقه كيف شاء، وقد قضى الله أن الحق والباطل سوف يظلان في تدافع إلى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠]، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

إننا لا نريد أن نظل نبكي على واقع الأمة دون تقديم أي عمل فهذا حال البُلْهِ والسُّذَّجِ الذين لا يعقلون، وإنما ينبغي على كل غيور مؤمن أن يقدم البذل الصادق من وقته وعرقه ودمه لنصرة هذا الحق وتأييده ونشره، فليست الأمة إلا أنا وأنت، ليست الأمة إلا مجموعة أفراد وفي صلاحنا صلاح لأمتنا، وفي رجوعنا إلى ربنا رجوع الأمة إلى الله، وفي كفاحنا وصدق بذلنا شهادة عملية على خيرية الأمة واستحقاقها للتمكين والعلو، فلن ينصرنا الله إلا إذا نصرناه، ولن يكون الله لنا إلا إذا كنا نحن له ولدينه، فلا تحزن لبلاءِ ألَمَّ بك، فما نزل إلا بقدرٍ، ولعل فيه مِنَحًا وكرامات سوف تحصل لك لن تصل إليها بغيره، إن البلاء مهما كان فلن يدوم، فافهم حقيقة البلاء ومعناه تسترح ويطمئن قلبك واثبت ثبتك الله.

٧- الثقة بوعد الله:

لقد وعد الله عباده أن تكون لهم العاقبة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥]، قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: ذكر الله جل وعلا في هذه الآية أنه وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات من هذه الأمة ليستخلفنهم في الأرض، أي: ليجعلنهم خلفاء الأرض، الذين لهم السيطرة فيها ونفوذ الكلمة، والآيات تدل على أن طاعة الله بالإيمان به والعمل الصالح سبب للقوة

والاستخلاف في الأرض ونفوذ الكلمة كقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ أي: وعدهم الله وأقسم في وعده ليستخلفنهم، قال تعالى: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: ٥٥]، هذا الدين الذي ارتضاه لهم هو الإسلام بدليل قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، قوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ﴾ قال الزمخشري: تمكينه تثبيته وتوطيده(١).

والأدلة التي تُبشر بنصرة الإسلام من القرآن والسنة كثيرة شهيرة وما أحوجنا إلى مطالعتها والتذكير بها في هذه الأيام؛ وذلك لأن الغفلة عنها سبيل إلى تسرُّب روح اليأس والقنوط إلى النفوس الضعيفة التي لم ترسخ فيها معاني الإيمان، وكم تزل قدم، وتخذل نفوس بسبب ما يرى الإنسان من صولة الباطل وضعف أهل الحق وحملته فلمثل هذا نقول: اعتز أيها المسلم بدينك، لتفتخر بهداية الله لك فإنه ليس على وجه الأرض من يوحد الله ويعبد الله غيرك ليس هناك من يدين بالحق في الخلق سواك، واصبر قليلًا فإن العاقبة للمتقين، وتقرب إلى ربك ما استطعت فسوف تجد قوة الحق في قلبك تعلو على كل باطل وزور، واعلم بأن الله جَلَّ جَلَالُهُ قد وعد بنصرة الإسلام وبقائه في آيات كثيرة من كتابه فمن ذلك قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٨-٩]، وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ

(١) «أضواء البيان» (٦/ ٢٤٦-٢٤٧) ط مكتبة ابن تيمية.

حَسۡرَةً ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ ﴾ [الأنفال: ٣٦]، وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَيَبْلُغَنَّ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مَدَرٍ ولا وَبَرٍ إلا أدخله الله هذا الدين، بعزِّ عزيز أو بذل ذليل، عزًا يعز الله به الإسلام، وذلًا يذل به الكفر**»(١).

وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإن أمتي سيبلغ ملكها إلى مازوى لي منها**»(٢)، وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ولا يزال ناسٌ من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون**»(٣).

أي أخي، هذا وعد الله فهل عندك شك؟! إن الإسلام قادم، والحق باق، والدين منتصر، فكن من الموفقين الموقنين بنصر الله، إنه ليس هناك يأس أو قنوط في قاموس الإسلام، مهما اشتدت الفتن فلا تيأس، ومهما عظمت المحن فلا تقنط، وكن بثباتك على الحق دليلًا وشاهدًا على حبك للحق ويقينك بوعد الله ونصره، ولن يتخلى الله أبدًا عن أوليائه، بل إن معونة الله تأتيك وحفظ الله يصونك وعلى قدر المؤونة تأتي المعونة، فثق بوعد ربك واثبت على الحق بحق.

٨- طلب العلم والالتفاف حول العلماء:

مجالس العلماء أشبه شيء بمجالس الأنبياء، والدنيا كلها مظلمة إلا مجالس العلم والذكر لله جَلَّ جَلَالُهُ، والعلم سلاح صارم في دفع الفتن وردِّ الشبهات، وسبيل عظيم من سبل الثبات على الحق، وكلما زادت معرفتك بالحق زاد استمساكك به وحرصك وثباتك عليه، وأثبت الناس أمام الفتن هم العلماء؛ لأنهم أعرف الناس بها، وأبصر الناس بالحق، نعم إخوتي إن مجالس العلماء في هذا الزمان بمثابة سفينة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ من ركبها وكان من أهلها سلم ونجا، ومن تخلف عنها كان في الأعم الأغلب من المغرقين،

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٠٣)، وغيره وصححه الألباني في «الصحيحة» برقم [٣].

(٢) رواه مسلم برقم [٢٨٨٩].

(٣) رواه البخاري برقم [٣٦٤٠]، ومسلم برقم [١٩٢١].

وقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين**»(١)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيمن وجد فرجة في مجلس العلم فجلس فيها: «**أما أحدهم فآوى إلى الله فآواه الله**»(٢)، فمن آوى إلى الله آواه الله، ومن ذكر الله في ملأ ذكره الله في ملأ خير منهم، وأعظم المجالس التى يذكر الله فيها مجالس العلم، فاجعل لنفسك أخي الحبيب درسًا أسبوعيًا على الأقل لعالم من علماء السنة الربانيين تحضره وتجدد فيه إيمانك وتؤنس فيه قلبك، واحذر أن تهجر مثل هذه المجالس المباركة فيقسو قلبك، وتكون من الزلل والفتنة أقرب، واثبت على تلك المجالس واصبر صبرك الله وثبتك.

اللهم إنا نسألك الثبات على الإيمان، اللهم ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب، اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك.

❁ ❁ ❁

(١) رواه البخاري برقم [٧١]، ومسلم برقم [١٠٣٧].

(٢) رواه البخاري برقم [٦٦]، ومسلم برقم [٢١٧٦].